منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

البلاغة و الخطاب

إعداد وتنسيق: د.محمد مشبال

معالم نقدية

جدل الظاهرة والاستجابة

دراسة في فخاخ البلاغة[1]

عماد عبد اللطيف

كل بلاغة وظيفية في جوهرها، بقدر ما هي آنية في تأثيرها. فالتأثير في المتلقي وإقناعه كانا – وما يزالا– غاية كل فعل بلاغي، سواء تُوسِّل في إنجازهما بالكلمة أو الصورة أو الإشارة أو الحركة أو مزيجًا منها جميعًا أو غيرها. لقد تحفز الجهد البشري حول البلاغة على مدار ألوف السنين بواسطة قناعة راسخة بأن تشكل الخطابات وأدائها على نحو مخصوص (قد) يُنجز وظائف وتأثيرات واستجابات مخصوصة. وبصياغة أكثر دقة، آمن البلاغيون – والبلغاء أيضًا– بأن ثمة علاقات وثيقة بين اختيار المتكلم لطرائق محددة للقول والأداء والآثار التي يتركها في المتلقي. وسعى بعض البلاغيين إلى وضع قواعد تفسر هذه العلاقات، وتتنبأ بها، بهدف الوصول إلى وصفة معيارية مثالية، تُمكِّن المتكلمين من تشكيل خطاباتهم وأدائها على نحو يمكِّنهم من الوصول إلى أقصى حدود الإقناع والتأثير. وفي سبيل بلورة هذه القواعد بُذِلَت جهودٌ هائلة في استكشاف طرائق القول والأداء وتصنيفها وتبويبها وتأمُّل وظائفها وآثارها.

لقد قدَّم البلاغيون العرب إسهامهم في هذه المسألة من منظور تقعيدي، يتم فيه الربط بين ظاهرة بلاغية ما في مطلقها، ومجموعة من الوظائف البلاغية العامة. (مثل ربط القزويني – على سبيل المثال– بين وجود الخبر ووظائف بلاغية محددة هي التخصيص والتفاؤل والتشويق[2]؛ أو ربط الزمخشري بين ظاهرة

---

[1] يتقدم المؤلف بامتنان خاص لمشروع دعم البحوث في العلوم الاجتماعية، بكلية الآداب، جامعة القاهرة، على تفضله بدعم هذا البحث.

[2] – انظر: القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة. دار إحياء العلوم، بيروت، ط2، 1993.

الالتفات، ووظائف تشويق السامع، وتطريبه، ولفت انتباهه[3]). وعادة ما تُستخدم مدونة مألوفة للاستشهاد على هذه الوظائف، يقوم دارسو البلاغة بتدويرها في مؤلفاتهم، بدرجات متفاوتة في الشرح والتعليق. لكننا نجد أيضًا منظورات أكثر تحليلية لسبر العلاقة بين الظاهرة البلاغية والوظيفة البلاغية؛ خاصة في الكتابات ذات المنحى التطبيقي؛ كما هو الحال في شروح الشعر وتفاسير القرآن. ففي مثل هذه الكتابات – خاصة لدى مَنْ تمتعوا بقدرات تحليلية متميزة مثل ابن جني والزمخشري- تتجه غاية البلاغي إلى الكشف عن وظائف الظواهر البلاغية في مدونة محددة، يتم تداولها في سياقات معروفة، قد تكون تداولية أو شعرية، وغاية تحليلاتهم الوصول إلى ما تُنجزه التحققات الفردية للظاهرة في سياقاتها الخاصة. ولم يحل ذلك بالطبع دون الطموح إلى استكشاف الوظائف التي يتواتر تحققها بواسطة ظاهرة ما؛ وهو ما يمكن أن يكون مؤشرًا على وجود علاقة عمومية بينهما.

يمكن أن نرصد عددًا من الملاحظات حول العلاقة بين الظاهرة والوظيفة في التراث البلاغي العربي. أولى هذه الملاحظات هي أنه يشيع في كتابات البلاغيين اختصاص الظاهرة البلاغية بوظيفة ما، تقوم بإنتاجها بمعزل عن المكونات اللغوية والأدائية الأخرى للخطاب الذي تتواشج معه. بالطبع توجد استثناءات محدودة تُدرك أن الظواهر لا تُنجز وظائفها منعزلة، وتؤمن بأن البنيات اللغوية وغير اللغوية لأي خطاب تتعاضد وتتشارك في إنجاز فاعليته. لكن هذا الإدراك غير مطرد في التراث البلاغي، حيث إنه لم يتحقق إلا لدى بلاغيين معدودين. كما أنه لم يطرد في مؤلفاتهم، بل ظهر في مواقف محدودة. وفى المقابل هيمنت الرؤية المفتتة للنص، التي تنظر إلى الظواهر البلاغية بوصفها كيانات منفصلة، وهو ما أدى إلى إهمال الروابط البنائية والوظيفية بين الظواهر البلاغية في الشروح والتنظيرات التراثية. فالشروح تقدم وظائف الظواهر البلاغية في معظم الحالات بمعزل عن المكونات اللغوية الأخرى للخطاب. والكتابات التنظيرية تقوم على عزل هذه الظواهر بعضها عن بعض حيث يكون لكل ظاهرة وظائفها الخاصة بمعزل عن الظواهر الأخرى.

الملاحظة الثانية تتعلق بمخاطر تعميم العلاقة بين ظاهرة بلاغية ما ووظيفة ما. فقد جاءت الرغبة في التقعيد لهذه العلاقة على حساب السياقات المتفردة لكل تحقق منها. وعلى الرغم من أننا يمكن أن نتفهم أن ثمة مخاطر معرفية لكل تعميم؛ فإنه عادة ما توجد إجراءات تقلل من مخاطر التعميم وتهمشها. لكن

[3] – انظر: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. مكتبة مصر، القاهرة، جـ1 ص19 -20.

الدرس البلاغي العربي، خاصة في توجهه المدرسي، يعاظم من هذه المخاطر، في سعيه لتوفير معرفة تعليمية سهلة المعالجة للدارسين المبتدئين. وكثيرًا ما يصل وصف العلاقة بين الظاهرة والوظيفة إلى أقصى درجات الاختزال المخل، حين يُعزى إلى ظاهرة ما إنجاز وظيفة أو وظيفتين وحيدتين بغض النظر عن السياق النصي والخارجي التي ترد فيه. وربما ما يزال يتردد في صدى ذاكرتنا الجمعية عبارات من حفرياتنا التعليمية مثل "تضاد يوضح المعنى ويؤكده"، و"تشبيه يزيد من جمال المعنى" و"فعل مضارع يفيد التجدد والاستمرار" ..إلخ. وهي عبارات جاهزة (كليشية) تجسد أقصى مخاطر التعميم، لكونها تحصر ما تُنجزه الظاهرة البلاغية في وظيفة واحدة وحيدة، في حين أن أية ظاهرة قد تُنجز آلافًا من الوظائف المختلفة وفقًا لسياقات إنتاجها وتداولها وتلقيها، قد تصل العلاقة فيما بينها حد التعارض والتناقض.

الملاحظة الثالثة ترتبط بنوعية المدونات التي اعتمد عليها البلاغيون العرب في التنظير للعلاقة بين الظاهرة والوظيفة البلاغيتين؛ إذ كانت هذه المدونات – عادة- متناهية الصغر لا تتجاوز الجملة أو الجملتين. فمعظم التحليلات البلاغية التراثية تتوقف عند حد الجملة البلاغية، ولا تتعداها إلى النص أو الخطاب، وهو ما أفقد النصوص اتصالها، وضيَّع على البلاغيين فرصًا أفضل لاكتشاف دور التحققات المتنوعة للظاهرة البلاغية في الخطاب ككل في إنجاز وظائفه.

تتصل الملاحظة الرابعة بندرة الكتابات العربية التي حاولت الكشف عن العلاقة بين الظواهر البلاغية (اللغوية والأدائية) التي تشكل الخطاب البلاغي، والاستجابة الفعلية (الخطابية وغير الخطابية) التي يقوم المتلقون بإنتاجها أثناء تلقي الخطاب وعقبه. لقد كان مفهوم الوظيفة البلاغية يحيل غالبًا إلى الأثر المقصود، الذي يتوخى المتكلم إحداثه في المتلقي. أما التأثير الفعلي الذي يحدثه الخطاب، والذي يتجسد على أفضل نحو في استجابات المتلقي، فإنه لم يحظ إلا بالقليل من الاهتمام من دارسي البلاغة العربية.

هذه الملاحظات الأربع تجعل من الضروري إعادة النظر في طبيعة العلاقة بين الظاهرة والوظيفة والاستجابة في البلاغة العربية. وسوف أحاول أن أقدم معالجة تطبيقية لهذا المبحث المهم من المباحث البلاغية. وسوف أدرس على وجه التحديد، العلاقة بين حزمة من الظواهر البلاغية (اللغوية والأدائية) وإحدى الاستجابات الشائعة في الخطابات الجماهيرية في الوقت الراهن؛ هي استجابة التصفيق. وذلك في مدونة من الخطب السياسية المصرية. وسوف أحلل بالتفصيل كيف تعمل الظواهر البلاغية بوصفها فخاخًا لاستجابات الجمهور، تلك الاستجابة التي تُعد تجليًا لتحقق الإقناع والتأثير اللذين يرومهما كل خطاب تداولي.

فخاخ البلاغة: كيف تصنع البلاغة استجابات الجمهور في الفضاء العام

تبدو استجابة الجماهير أثناء تلقي الخطب السياسية عظيمة الشأن للسياسيين في العالم المعاصر. فرجال السياسة متشوقون دومًا لنيل استجابات الاستحسان والإعجاب والتأييد مثل التصفيق والهتاف والصفير ورفع إشارات النصر ودق الطبول. فهذه الاستجابات تتمتع بأهمية سياسية لأنها تُستخدم مؤشرًا على درجة الشعبية أو التأييد الذي يحظى به رجل السياسة، وأهمية اجتماعية بفضل دورها في تعزيز التفاعل بين المتكلم والجمهور، وأهمية سيكولوجية بفضل توليدها لمشاعر الرضا والانتشاء على المستوى الجمعي، بما يُمكِّن السياسي من إنجاز عمليتي الإقناع والتأثير[4].

لقد اهتمت بحوث محدودة بدراسة العلاقة بين المكونات البلاغية للخطاب، واستراتيجيات أدائه الخطابي من ناحية واستجابات الجمهور من ناحية أخرى. وبرهنت هذه البحوث على أن الاستجابات الاستحسانية التي يُنتجها الجمهور لا تتأثر بمحتوى الخطبة ومعانيها ودلالاتها والقرارات التي تقدمها والمواقف السياسية التي تروجها فحسب، بل إنها تتأثر – ربما بدرجة أكبر – بطرق تشكل النص وآدائه[5]. وظهر مصطلح "الفخاخ البلاغية" للإشارة إلى مجموعة من التقنيات أو الحيل أو الأساليب اللغوية والبلاغية التي يتم تصميمها لاصطياد استجابات الاستحسان من الجمهور[6]. غالبًا ما تعمل هذه الفخاخ بشكل غير مباشر، ودون وعي من الجمهور. كما أنها تتكون من مزيج ممَّا يُعرف بفخاخ التصفيق claptraps

---

[4] – انظر، عبد اللطيف، عماد. (2009). لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن. دار العين، القاهرة، ص 99- 100.

[5] – انظر:

Bull, P. (2006). Invited and Uninvited Applause in Political Speeches. British Journal of Social Psychology, 45, 563- 578.

[6] – انظر:

Atkinson, M. (1984). Our Masters' Voices: The Language and Body Language of Politics. London: Methuen وكذلك: Bull, P. (2003). The Microanalysis of Political Communication: Claptrap and Ambiguity. London: Routledge.

مثل القوائم ثلاثية الأجزاء three– part lists والثنائيات المتقابلة contrastive pairs، إضافة إلى فخاخ صوتية مثل النبر والتنغيم، وفخاخ الأدائية مثل حركات الجسد واليدين[7].

تقوم الفخاخ البلاغية بدفع الجمهور إلى إنتاج استجابات استحسانية بشكل خفي. فالسياسيون عادة ما يُضمرون رغبتهم في هذه الاستجابات، ويتحرزون من طلبها بشكل مباشر من الجمهور، على الرغم من حرصهم الشديد على اصطياد هذه الاستجابات وتحفيزها. ومن هذه الزاوية، فإن الفخاخ البلاغية تُعد مثالاً دالاً على كيفية تُنتج حزما من الظواهر البلاغية والأدائية لتأثيرات واستجابات المتلقين.

يدرس هذا البحث الفخاخ البلاغية في عينة من خطب الرئيس جمال عبد الناصر، محاولاً الكشف عن العلاقة بين الصياغات البلاغية للخطب وطرق أدائها من ناحية، وطبيعة استجابات الجماهير لها من ناحية أخرى. كما يُقدم توصيفًا للوظائف التي تسعى استجابات الجماهير لإنجازها، والكيفية التي تقوم من خلالها بالفعل بإنجازها. وكذلك يرصد الطرق المختلفة التي يستخدمها الخطباء السياسيون لحث الجمهور على إظهار استجابات استحسانية. إضافة إلى مناقشة الدور الذي تقوم به استجابات الجماهير في تدعيم سلطة الخطباء السياسيين أو مقاومتها.

لقد أصبح التصفيق في الوقت الراهن مكونًا أساسيًا من مكونات الخطابة السياسية في معظم ثقافات العالم. فالخطبة السياسية المعاصرة تكاد تتكون من سلسلة متتابعة من الكلام الذي يتلوه تصفيق أو التصفيق الذي يتلوه كلام. وقد توغل التصفيق في الخطب السياسية إلى حد أنه في بعض الأحيان يشغل مساحة زمنية تكاد لا تقل كثيرا عن المساحة الزمنية لكلام الخطيب.

يكشف توغل التصفيق في الخطابة السياسية عن الطابع التفاعلي لهذه الخطب؛ وذلك مقارنة بغيرها من أشكال التواصل السياسي. فالخطابة السياسية أحد أهم أنواع الاتصال السياسي التي تسمح للجمهور بدمج استجابته ضمن متن الخطاب الذي يتلقاه. وهي من ثمَّ ميدان فسيح للكشف عن مواقف الجمهور واتجاهاته مما يسمعه، ومن السياسات التي يمثلها الخطيب، ومن شخصية الخطيب ذاته. ومن هنا فمن الضروري البحث في أساليب دفع الجمهور إلى إنتاج هذه الاستجابة، ودور البلاغة في إحداثها.

---

[7] – Kuo, S,. (2001).”Generating Applause and Laughter: A Study of Rhetoric and Response in the 1998 Taipei Mayoral Debates.” *Studies in English Literature and Linguistics* 27 (2), 189- 215.

أساليب دفع الجمهور إلى التصفيق في الخطب السياسية

ميَّز بُل (2000) bull بين نوعين من التصفيق؛ **الأول** هو التصفيق الذي يتم استدعاؤه بواسطة أساليب بلاغية مثل القوائم ثلاثية الأجزاء والثنائيات المتقابلة، ويطلِق عليه اسم **التصفيق المستدعَى** invited applause. **والثاني** هو التصفيق الذي لا يسبقه أيٌّ من هذه الأساليب البلاغية، بل هو استجابة مباشرة لمحتوى ما من محتويات الخطبة يرغب الجمهور في دعمه والتأكيد عليه. ويطلق عليه **التصفيق غير المستدعَى** uninvited applause[8]. فالتصفيق المستدعَى يحدث نتيجة استخدام فخاخ بلاغية بينما يحدث التصفيق غير المستدعَى نتيجة تأييد الجمهور لموقف المتكلم ودعمهم لرأيه في لحظة خطابية ما.

قد يظن المرء للوهلة الأولى أن محتوى الخطبة هو العامل الأساس في إحداث التصفيق، لكن هذا غير صحيح. فالفخاخ البلاغية ربما كانت أكثر تأثيرا في إحداث التصفيق – في المجتمعات "الديمقراطية"– من محتوى الخطبة. وبحسب إحدى الدراسات فإن الفخاخ البلاغية كانت العامل الأساس وراء إحداث ما يقرب من ثلثي التصفيق الجماعي في عينة من الخطب السياسية البريطانية تبلغ 476 خطبة[9].

وقد توصل أتكينسون من خلال تحليله لخطب حزبية بريطانية أن ما يقرب من 95% من حالات التصفيق تأتي بعد واحد من الثيمات الثلاث الآتية: 1) عزو صفات حسنة إلى أشخاص بعينهم، 2) عزو صفات حسنة إلى "النحن us"، 3) عزو صفات غير حسنة إلى "الآخرين them"[10].

غالبا ما يحدث التصفيق الحماسي قبيل إكمال المتكلم للجملة أو العبارة التي يؤديها. ويأتي هذا دلالة على تحمس الجمهور للتصفيق واستحسانهم الكامل لكلام المتكلم. على العكس من ذلك قد يصفق

---

[8] – انظر:

Bull, P. (2000). Do Audiences Applaud only “claptrap” in Political Speeches? An Analysis of Invited and Uninvited Applause. *Social Psychological Review*, *2*, 32- 41.

[9] – انظر:

Heritage, J., & Greatbatch, D. (1986). Generating Applause: A Study of Rhetoric and Response at Party Political Conferences. American Journal of Sociology,92, 110- 157.

[10] – أتكينسون (1984)، مرجع سابق، ص 44.

الجمهور بعد توقف المتكلم عن الكلام بفترة زمنية قد تكون ثانيتين أو أكثر. ويمكن تسمية هذا التصفيق **بالتصفيق المتردد**. وهو يعكس حالة من التردد في التصفيق وفتور الاستحسان. وهو من ثم يُصبح ذا تأثير سلبي خاصة حين يظل تصفيقا فرديًا متقطعا ولا ينضم له جمهور آخر؛ إذ يعكس حالة فتور وعدم تأييد كاملين. وكلما زاد الوقت الفاصل بين اكتمال الكلام وبدء التصفيق تعمق الإحساس بالفتور وعدم التأييد[11]. ولأن السياسيين يدركون مدى الأذى الذي قد يُلحقه التصفيق المتردد الفاتر على صورتهم السياسية فإنهم غالبًا ما يستخدمون عناصر بلاغية تركيبية أو صوتية لتنبيه الجمهور إلى أن توقيت التصفيق قد جاء. وغالبًا ما يكون الجمهور مؤهلا لفهم كون هذه العناصر تنطوي على رسالة غير معلنة بضرورة التصفيق الآن، وعادة ما يستجيب الجمهور بالفعل لها بواسطة التصفيق[12]. هذه العناصر تعمل بوصفها أساليب تدفع الجمهور نحو التصفيق، وحظيت باهتمام كبير من دارسي التصفيق المعاصرين. لكن هذه العناصر – التي سوف ندرسها لاحقًا تحت عنوان أساليب استدعاء التصفيق- ليست المسئولة بشكل عن إنتاج القدر الأكبر من استجابات التصفيق. بل إن فخاخ البلاغة التي تعمل بشكل غير ملحوظ، ولا يدركها الجمهور بوعي مباشر تقوم بذلك. وسوف نتعرف في الصفحات الآتية على أهم الفخاخ التي توقع الجمهور في حبائل إنتاج استجابة التصفيق.

فخ التصفيق: المفهوم والوظيفة

تُستخدم "فخاخ التصفيق claptrap" لتجذب الجمهور إلى التصفيق بشكل غير مباشر. فالسياسيون عادة ما يتحرزون من طلب التصفيق بشكل مباشر من الجمهور، أو القيام بأية إشارة مباشرة توحي برغبتهم في أن يُصفق لهم الجمهور؛ وذلك على الرغم من حرصهم الشديد على اجتذاب تصفيق الجمهور لهم. وبدلا من ذلك غالبا ما يلجأ السياسيون إلى "فخاخ التصفيق" التي تمكنهم من اجتذاب الجماهير إلى التصفيق بشكل غير مباشر. فما هي فخاخ التصفيق؟ وكيف يمكن تحقيقها؟

---

[11] – في قليل من الأحيان يتأخر تصفيق الجمهور بعد اكتمال الكلام على الرغم من استحسانهم له. وذلك بسبب عوامل أخرى مثل وجود انفعالات مختلفة لدى الجمهور مثل الشجن أو الغضب الشديد تُرجئ التعبير عن استحسان كلام المتكلم. وفي هذه الحالة فإن تأخر التصفيق لا يعكس ترددًا أو فتورًا.

[12] – أتكينسون، مرجع سابق، ص 34.

فخاخ التصفيق في الخطابة السياسية هي مجموعة من التقنيات أو الحيل أو الأساليب اللغوية والبلاغية التي يتم تصميمها لاصطياد التصفيق من الجمهور. غالبًا ما تعمل هذه الفخاخ بشكل غير مباشر، ودون وعي من الجمهور. كما أنها تتكون من مزيج من الفخاخ البلاغية والفخاخ الصوتية مثل النبر والتنغيم والفخاخ الأدائية مثل حركات الجسد واليدين.

لقد انحدرت كلمة فخ التصفيق claptrap من التقاليد المسرحية للقرن الثامن عشر، وكانت تعني بالضبط ما يمكن للمرء تخيل استخدامه فخًا للتصفيق، أو ما أُطلق عليه "فرملة العرض" showstopper. "فأية إشارة أو لحظة صمت أو سطر ختامي مبالغ فيه، أو أداء درامي..إلخ يؤدي إلى أن يقاطع الجمهورُ الحدثَ المسرحي فإنه يُعد فخًا للتصفيق. وفي حين أحب الجمهور الآن وفيما مضى فخاخ التصفيق فإن النقاد لم يفعلوا. ترتب على ذلك أن تعبير فخ التصفيق فقد بمرور الزمن معناه الحقيقي وتمدد استعاريًا ليعني "هراء"، أو "كلام فارغ طنان". لكن فخ التصفيق في الأصل كان يقوم بكسر إطار الأداء، لكي يجعل الجمهور واعيًا بالمؤدي؛ يجعله قادرًا لا على رؤية *الملك لير* بل على رؤية الممثل الذي يؤدي شخصية الملك لير. فخ التصفيق هو نوع من المفارقة؛ فهو منظور خارج الإطار يستطيع المرء من خلاله أن يشعر بالتوحد والانتماء والتعاطف. فخ التصفيق قد يكون هو الشخص الذي يُخبرك أن ما تراه "ليس إلا حدوتة" حين يغلبك البكاء الشجي. يحطم فخ التصفيق التوهمات ويكبح التعاطف ويحول دون التوحد، وهو كذلك يفرض إطارًا جديدًا للتفاهم، ويوسع من الآفاق، ومن المؤكد أنه يمنع بعض أنواع الأمراض. فخ التصفيق هو تأمل الذات لنفسها، هو فعل ما بعد حداثي وتفكيكي"[13].

على الرغم من أن فضاء المسرح وفضاء السياسة يجمعهما الكثير من التشابهات فإن وظائف فخاخ التصفيق التي تؤدَّى على فضاء المسرح السياسي تختلف كلية عن وظائف فخاخ التصفيق التي تُؤدى على فضاء المسرح الدرامي. فإذا كان فخ التصفيق في المسرح يُحطم التوهمات ويحول دون التوحد بالبطل فإن فخ التصفيق في المسرح السياسي على العكس من ذلك هدفه إذكاء التوهمات، وغاية مناه توحد

---

[13] – انظر:

Becker, J. (1991). A Brief Note on Turtles, Claptrap, and Ethnomusicology. *Ethnomusicology*, Vol. 35, No. 3 (Autumn, 1991), pp. 393- 396، ص294- 295.

الجمهور مع السياسي. وإذا كان فخ التصفيق في المسرحية هو وسيلة لتأمل الذات؛ فإن فخ التصفيق في الخطبة السياسية هو وسيلة لتغييب الذات نفسها لصالح التركيز على ذات السياسي وحده.

فخاخ التصفيق في الخطابة السياسية لا تفيد المتكلم فحسب، بل تصب في مصلحة الجمهور كذلك. فالفرد الجالس ليستمع الخطبة يرغب في أن تكون استجاباته منسجمة مع بقية الأفراد الذين يُشكلون جمهور الخطبة. وذلك حتى لا يقوم باستجابة فردية لا ينضم إليها الآخرون فيشعر بأنه يتحرك بعيدًا عن الجماعة. ولنتخيل أن شخصًا يستمع إلى خطبة ما، ثم يظن أن المتكلم قد قال شيئًا يستحق التصفيق، فيصفق بحرارة في حين ينظر إليه الآخرون شذرا ولا ينضمون إليه. بالتأكيد سوف يشعر مثل هذا الشخص بحرج بالغ. فإذا تكرر ذلك فمن المتوقع أن يشعر هذا الشخص بالأسى لعدم قدرته على التوافق مع حركة الجمهور، أو عدم قدرته على تحفيزهم لمتابعته. وسوف يسأل نفسه: لماذا أُصفق دومًا في الوقت الخاطئ؟ لماذا لا أستطيع معرفة الوقت الذي سوف يُصفق فيه الجميع؟ لماذا أبدو منبوذًا من الجماعة؟ إن بعض فخاخ التصفيق تحاول أن تقلل من توتر مثل هذا الشخص من خلال إمداد أفراد الجمهور بإرشادات وعلامات تمكنهم من التصفيق جميعًا في وقت واحد، فيزول التوتر والقلق الذي قد يحدث نتيجة التضارب في تقديرات الجمهور للوقت المناسب للتصفيق. وهكذا فإن استخدام المتكلم لقائمة ثلاثية الأجزاء – على سبيل المثال– أشبه بجرس يُنبه الجمهور إلى أن المتكلم سوف يصل إلى لحظة مناسبة للتصفيق بعد انتهاء العنصر الثالث. وهكذا يُقبل الجمهور بحماس على الدخول إلى ساحة التصفيق بعد أن قدم لهم المتكلم العلامات الإرشادية اللازمة. وهكذا فإن فخاخ التصفيق تؤدي وظيفتين متناقضتين؛ فهي تقتنص الاستحسان من الجمهور من ناحية، لكنها تُنقذه من الوقوع في فخ التصفيق الفردي الذي قد يقلل من الصورة الإيجابية للفرد من ناحية أخرى.

لقد ظلت فخاخ التصفيق تعمل في الخطابة السياسية دون تنظير حتى أخرج أتكينسون كتابه الشهير السابق الإشارة إليه، متضمنًا تحليلا تفصيليًا لفخين بلاغيين من أكثر الفخاخ انتشارًا في الخطابة السياسية البريطانية؛ هما القوائم ثلاثية الأجزاء والثنائيات المتقابلة. وقد طرح أتكينسون في ختام تحليله لهذين الفخين سؤالا حول ما إذا كانت فخاخ التصفيق موجودة في الخطب السياسية التي تُلقى بلغات أخرى في ثقافات أخرى غير الإنجليزية. وأكد أن المؤشرات الأولية تبرهن على أن الفخين السابقين يعملان بكفاءة في الخطب السياسية في فرنسا وألمانيا وهولندا. وقد أشار كذلك إلى أن هذين الفخين يعملان بكفاءة أيضًا في إيران. فعلى الرغم من أن جماهير الشعب الإيراني توقفت منذ الثورة عن التصفيق في أثناء

الخطب السياسية استنادًا إلى أن التصفيق بدعة غربية، فإن العديد من تسجيلات خطب آية الله الخميني تُظهر أن الجماهير الإيرانية تبدأ بالهتاف –وهو بديل التصفيق لإظهار الاستحسان– استجابة لقوائم ثلاثية أو ثنائيات متقابلة.

تُظهر العينة التي قمت بتحليلها من خطب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أن فخي التصفيق اللذين تحدث عنهما أتكينسون يُستخدمان كذلك في الخطابة السياسية المصرية. ومع ذلك فإنني أرى أن لكل ثقافة "فخاخها". فالتصفيق فعل ثقافي يتأثر بشكل مباشر بطبيعة الثقافة التي يُمارَس فيها. كما أن فخاخ التصفيق هي فخاخ بلاغية وأدائية، ومن ثم فإن اختلاف البلاغة وطرق الأداء يؤدي إلى اختلاف فخاخ التصفيق ذاتها. وقد كشف التحليل الذي قمت به أن الخطب السياسية المصرية المعاصرة تستخدم عددًا أكبر من فخاخ التصفيق. وتتضمن قائمة هذه الفخاخ ما يأتي:

1. ذكر اسم شخص أو تاريخ أو حدث يحظى بتقدير الجمهور

يُعتبر هذ الفخ أسهل فخاخ التصفيق وأكثرها قدرة على اجتذاب الجمهور ليقعوا في شراكه. ويستفيد هذا الفخ من التقدير الكبير الذي قد يوليه جمهور المستمعين لشخص أو حدث أو تاريخ أو مناسبة ما؛ حيث يستطيع الخطيب الذي يذكر اسم مثل هذا الشخص أو التاريخ أو الحدث أو المناسبة أن يحصل على دفقات من التصفيق الحار.

في ستينيات القرن العشرين صفق المصريون كثيرا للحركات الجماهيرية أو العسكرية التي استهدفت الخلاص من الاستعمار القديم، أو انقلبت على أنظمة حكم ملكية. وهكذا التهبت أكف المصريين تصفيقًا كلما ذكر عبد الناصر – أو من يمثله– مجاهدي الجزائر أو "ثورة" اليمن أو "ثورة" العراق. كان العصر عصر تحرر وأحلام بالاستقلال. وكان نظام عبد الناصر قد اختار سياسة التدخل خارجيًا لمساندة هذه أو تلك من حركات التحرر أو مقاومة الاستعمار. وفي المقتطف الآتي – على سبيل المثال– صفق المصريون لحدث وقع قبل سنوات طويلة في دولة أخرى هي العراق؛ لمجرد أنه يرتبط بمجال التحرر السياسي من الاحتلال والهيمنة*:

خطبة عبد الناصر في جامعة القاهرة في ذكرى الوحدة في 1966

عبد الناصر: بعد كده فى اليوم اللى كان مقرر فيه أن يجتمع رؤساء الدول

الموقعة على حلف بغداد فى أنقرة؛ ليبحثوا شئون الشرق الأوسط، وينظموا عملية التدخل فيه؛ استيقظ العالم على أنباء ثورة ١٤ يوليو فى العراق

الجمهور: – *–

&&&&&&

تختلف قائمة الأشخاص أو التواريخ أو الأحداث التي تحظى بالتصفيق من مجتمع إلى آخر، ومن لحظة زمنية إلى أخرى. وتتأثر هذه القائمة — في الحالة المصرية– بموقف الحاكم وتقييمه لمثل هذه الأحداث. فأعضاء الاتحاد الاشتراكي ومجلس الأمة من المصريين الذين صفقوا في الستينيات – على سبيل المثال– لكل ما يتعلق بنقد شاه إيران، هم أنفسهم —بعد أن تحولوا لُيصبحوا أعضاءً في مجلس الشعب أو الحزب الوطني– من صفقوا بحرارة للشاه نفسه. على الرغم من أنه لم يطرأ تغير يُذكر على الشاه أو على نظام حكمه. بل طرأ التغير على موقف الحاكم منه؛ ففي حين عاداه عبد الناصر، لموقفه الداعم لإسرائيل، وعلاقاته الوثيقة بأمريكا التي رأى أنها تهدد القومية العربية، صادقه السادات ربما أيضًا لعلاقاته الوطيدة مع إسرائيل، وعلاقاته الوثيقة بأمريكا التي رأى أن الشاه قد يكون مفتاحه لتأسيس علاقات مماثلة معهما. وفي الحالتين صفق رجال السلطة لاختيار الحاكم.

غالبًا ما يحاول السياسيون تهيئة الجمهور لاستقبال ذكر اسم الشخص من خلال إيراد بعض النعوت الإيجابية عنه قبل الاسم، أو ذكر بعض ألقابه أو صفاته أو مناصبه أو نقائبه..إلخ. ويؤدي ذلك إلى استحضار صورة الشخص في أذهان الجمهور قبل نطق اسمه من ناحية، وإلى تحفيز الجمهور للتصفيق بشدة للشخص المذكور بما يتناسب مع الصفات التي يعزوها الخطيب له من ناحية أخرى. وذلك كما يتضح في المقتطف الآتي:

خطبة عبد الناصر في جامعة القاهرة في ذكرى الوحدة في 1966

عبد الناصر: باسم شعب الجمهورية العربية المتحدة أشكر السيد

رئيس الوفد العراقى الذى يشترك معنا فى هذا الاحتفال بعيد الوحدة، وأحمله تحية شعب الجمهورية العربية المتحدة إلى شعب العراق المناضل والرئيس البطل عبد السلام عارف

⇓

&&&&&& -&

فقد بدأ التصفيق قبيل انتهاء عبد الناصر من نطق اسم عبد السلام عارف واستمر لمدة سبع ثواني. وكان قبيل ذلك قد مهد لذكر اسمه بتقديم التحية للشعب العراقي، التي أتبعها وصف "الرئيس"، و"البطل". ومن المؤكد أن الجمهور بعد نطق كلمة الرئيس كان يدرك أن اسم عبد السلام عارف سوف يُذكر الآن. وجاءت كلمة "البطل" ذات الدلالة الإيجابية لتُحفز الجمهور على الاحتفاء تصفيقًا بالاسم المذكور. ولم يُخيب الجمهور توقع الخطيب إذ بدأ في التصفيق قبيل انتهائه من نطق الاسم.

على مدار الخطبة يتكون لدى الخطيب معرفة بما يستحسنه الجمهور بدرجة أكبر من غيره، وهو ما يتجلى من خلال شدة تصفيقهم ومداه الزمني. ويستطيع الخطيب أن يُغير من محتوى خطبته —إذا كانت مرتجلة– أو من طريقة أدائه ليُحقق تصفيقًا أقوى من خلال مغازلة ما يستحسنه الجمهور. في الوقت الراهن لم يعد السياسيون ينتظرون التعرف على "نبض" الجمهور أثناء الخطبة؛ فغالبًا ما يكون لديهم تصور عما يميل إليه هذا الجمهور أو يرفضه أثناء إعداد الخطبة. وفي كثير من الأحيان تتم صياغة الخطبة لكي تنسجم مع هذه الميول، بهدف الوصول إلى أعلى درجة استحسان جماهيري؛ أي أكثر حالات التصفيق شدة وأطولها مدى.

2. الفكاهة والمفارقة

الفكاهة أحد فخاخ التصفيق الفعالة في الخطاب السياسي المصري المعاصر. ويمكن أن تتحقق الفكاهة من خلال الربط بين مناطق مختلفة في الخبرة البشرية، كما في المقتطف الآتي المأخوذ من خطبة لعبد الناصر:

عبد الناصر في ذكرى ثورة يوليو 1966

عبد الناصر: قلنا هانرفع تمن تذاكر الأتوبيس.. أنا باتكلم على تذاكر الأتوبيس مش على الرز، تذاكر الأتوبيس مش حتتباع فى السوق السودا

الجمهور: &&&&&&

عبد الناصر:حد يطلع يشترى شوية تذاكر الليلة من السوق السودا،

الجمهور: ضحك وتصفيق وتقطع

تتولد الفكاهة في هذا المقتطف من ربط عبد الناصر بين تذاكر الأتوبيس والسلع التموينية. وهي فكاهة سياقية لا يمكن أن تُفهم إلا من خلال توفير معلومات تاريخية عن تلك الفترة. ففي منتصف ستينيات القرن العشرين كانت الدولة تدعم عددا كبيرا من السلع الأساسية لأفراد الشعب. وقد أدى هذا إلى وجود تفاوت كبير بين أسعار السلع في الأسواق وفي وحدات البيع الحكومية، أدت إلى توحش السوق السوداء، التي يتم في إطارها تهريب السلع المدعمة وبيعها بالأسعار الأصلية. وقد دفع ذلك الكثير من المصريين إلى تخزين السلع الغذائية خوفا من ارتفاع أسعارها أو اختفائها من السوق. وقد تولدت الفكاهة في هذا المثال من خلال ربط عبد الناصر بين احتمال رفع جزء من الدعم عن تذاكر الأتوبيس واتجاه البعض إلى تخزين هذه التذاكر، كما يخزنون السلع التي يُحتمل أن ترتفع أسعارها.

قد يكون التصفيق كذلك للمفارقة اللغوية، كما في المقتطف الآتي:

خطبة عبد الناصر في جامعة القاهرة في ذكرى الوحدة في 1966

عبد الناصر: أما رحت جدة فى شهر أغسطس قبل ما اتكلم مع الملك فيصل قلت له: أحب أديك صورة عن الوضع عندنا لاحسن الإخوان المسلمين يكونوا مفهمينك إنهم يقدروا يغيروا حاجة أو يعملوا حاجة!

الجمهور: &&&&&&&&&&

عبد الناصر: هم أخدوا منكم فلوس وأنا عارف إنكم طولتم فى المحادثات على أساس إن الإخوان بيقولوا لكم إنهم حيغيروا الأوضاع فى شهر أو اتنين وتلاتة، وأنا عايز أطمنك كل الإخوان فى السجن،

الجمهور: &&&&&&&&

عبد الناصر: مافيش واحد منهم بره...

يسرد عبد الناصر في المقتطف السابق تفاصيل حوار دار بينه وبين الملك فيصل حول **الإخوان المسلمين**. يتضمن الحوار مفارقة لغوية جاءت على لسان عبد الناصر. ففي سياق كلامه مع الملك فيصل يقول "عايز أطمنك كل الإخوان في السجن". ومصدر المفارقة هو أن عبارة *أحب أطمئنك* توحي بأن المتكلم على وشك أن يقول شيئًا لمصلحة المخاطب. لكن ما جاء بعد ذلك هو العكس تمامًا. فالمفارقة أن سجن الإخوان هو أبعد ما يكون عن أن يكون مصدرا لطمأنينة الملك، بل هو في الواقع سبب قوي لانزعاجه. ولأن الجمهور يُدرك ذلك فقد أبدى إعجابه بهذه التمريرة اللغوية.

لقد صفق الجمهور إثر هذه المفارقة اللغوية؛ سواء إعجابا ببلاغة رئيسهم، أو تأييدا لفعل السجن. وفي الحالتين نصبح في مواجهة مفارقة أخرى، قد تكون أكثر إثارة للتساؤل؛ وهي أن الجمهور الحاشد بجامعة القاهرة الذي كان يسمع خطبة عبد الناصر كان يُصفق استحسانًا لاعتقال الدولة لعشرات الآلاف من أبنائه، ويحتفي بأنه "ولا واحد فيهم بره"!

3. القوائم ثلاثية الأجزاء

يرى أتكينسون أن "القوائم التي تتكون من ثلاثة عناصر هي الأكثر شيوعا في الخطب والمحادثات **وأشكال أخرى من التواصل**. وأن ما يجذب الاهتمام إلى القوائم الثلاثية هو أنها تنطوي على إيحاء بالاكتمال والوحدة؛ فالقوائم التي تتكون من عنصرين فحسب تبدو كما لو كانت غير مكتملة أو كافية[14]. " ولذلك فإن المتكلمين غالبا ما يستخدمون عبارات لا معنى لها لإكمال القائمة إلى ثلاثة عناصر إذا لم يستطيعوا إيجاد عنصر ثالث. ويستخدم أتكينسون تعبير "أشكال أخرى من التواصل"، الذي

[14] – انظر، أتكينسون (1984)، ص 57.

ورد في الجملة الأولى المقتبسة من كلامه مثالا على ذلك. فهذه الجملة لا تعني شيئًا محددًا لكنها تملأ الفجوة التي توجد في القائمة، وتحولها من قائمة تتكون من عنصرين –الخطب والمحادثات– إلى قائمة تتكون من ثلاثة عناصر.

إن شعور الاكتمال الذي يبعثه استخدام القوائم ثلاثية الأجزاء هو السبب وراء استخدامها فخًا للتصفيق. فالجمهور الذي يتلقى خطبة ما يُدرك حين يسمعها أن الكلام على وشك الاكتمال وأن الدور المنوط به –أعني استحسان ما قيل– يوشك أن يبدأ، فيتأهب من ثم للتصفيق. وقبيل انتهاء الخطيب من العنصر الثالث يبدأ الجمهور في تأدية واجب التصفيق.

تتكون القائمة الثلاثية من ثلاثة عناصر متتابعة. والمقتطف الآتي أحد الأمثلة التي أوردها أتكينسون لهذه القوائم:

خطبة أبراهام لينكولن في جيتسبرج 1863

لينكولن: حكم الشعب

بواسطة الشعب

لأجل الشعب

الخطاب السياسي أحد أكثر الخطابات التي يشيع فيها استخدام القوائم الثلاثية؛ فعلى سبيل المثال تشير نتائج إحدى الدراسات إلى أن استخدام القوائم الثلاثية كان مسئولا عن إحداث 12.6% من التصفيق الجماعي في 476 خطبة بريطانية[15]. ويُرجع أتكينسون حرص البريطانيين على تقديم قوائم ثلاثية إلى كون القوائم الثلاثية تصلح نقطة توقف طبيعي عن الكلام. فغالبًا ما يتوقف المتكلم بعد ذكر العنصر الثالث عن الكلام وينتقل لموضوع آخر، أو نقطة أخرى في نفس الموضوع مفسحًا المجال أمام المستمعين للتعبير عن استحسانهم في مثل هذه اللحظة المناسبة[16]. وعلى خلاف ذلك فإن المتكلم الذي لم يستطع

[15] – انظر، هيرتج وجريتباث (1986)، مرجع سابق، ص 127.

[16] – ربما كان الخطاب الديني هو الأكثر احتفالا بالقوائم الثلاثية. وربما كان ذلك هو العلة وراء قداسة الرقم ثلاثة وتجلياته في الخطاب الديني. ويبدو أن دلالة الرقم ثلاثة على الاكتمال تمثل جزءًا من المعرفة الشعبية الجماعية عند كثير من

إيجاد العنصر الثالث يُعاني في إنهاء الكلام، وعادة ما يلجأ لتعبيرات مثل (و..أم..) ثم لحظات صمت مربكة لكلا السامع والمتكلم[17].

غالبًا ما يعمد المتكلم إلى استخدام أكثر من قائمة ثلاثية متتابعة حتى يتسنى له ضمان تصفيق الجمهور. ففي المقتطف السابق استخدم السادات ثلاث قوائم ثلاثية مختلفة، وفي المقتطف الآتي استخدم عبد الناصر قائمتين اثنتين:

خطبة عبد الناصر في جامعة القاهرة في ذكرى الوحدة في 1966

عبد الناصر: احنا نقدر نقعد فى اليمن سنة واتنين وتلاتة وأربعة وخمسة، ونقدر نضحى ونقدر نستحمل؛ لأن احنا نؤمن بالجماهير العربية والثورة العربية، ونؤمن بوحدة النضال العربى

الجمهور: &&&&&&&&&

عبد الناصر: كان

يتضمن المقتطف السابق قائمتين، تتكون كل منهما من ثلاثة أجزاء.

القائمة **الأولى** هي:

(أ)

نقدر نقعد في اليمن

ونقدر نضحي

ونقدر نستحمل

والقائمة **الثانية** هي:

الثقافات. وهو ما يدل عليه شيوع تعبيرات مثل (الثالثة تابتة)؛ الذي يعني أن المحاولة الثالثة أو العنصر الثالث هو النهائي أو الأخير.

[17] – أتكينسون، مرجع سابق، ص 58.

(ب)
نؤمن بالجماهير العربية
و(نؤمن) بالثورة العربية
ونؤمن بوحدة النضال العربي

القائمتان بينهما روابط لفظية ومعنوية. فالقائمة الثانية تقوم بوظيفة تفسيرية للقائمة الأولى. فالقدرة على التضحية والتحمل والاستمرار في المعركة، تأتي نتيجة للإيمان بالجماهير العربية والوحدة العربية والثورة العربية.

يتكون كل عنصر في القائمتين من فعل مضارع وفاعل (ضمير الجمع نحن) والجملة الفعلية –كما في القائمة الأولى– أو الجار والمجرور كما في القائمة الثانية. ففي القائمة الأولى يتكرر الفعل "نقدر" في مفتتح كل عنصر، يتلوه الأفعال (نقعد، نضحي، نستحمل). أما في القائمة الثانية فيتكرر الفعل "نؤمن" يتلوه جار ومجرور (بالجماهير، بالثورة، بالوحدة)، وجميعها تتلوها صفة (العربية). ويؤدي التكرار اللفظي والتقطيع المتوازي للجمل إلى خلق إيقاع موسيقي منتظم، يقوي من الإيقاع المعنوي الذي تُحدثه القائمة الثلاثية.

4. الصمت القصير فور الانتهاء من العبارة

قد يستجلب الخطيب التصفيق بواسطة الصمت لوهلة بسيطة بعد اكتمال عبارة أو جملة ما. وذلك كما في المقتطف الآتي المأخوذ من خطبة للرئيس السادات في ذكرى ثورة يوليو:

خطبة السادات في ذكر ثورة يوليو 1974

السادات: نحن نريد أن نحرر الفلاح من أية قيود أو من أية ظروف استغلالية يفرضها عليه الإقطاعي أو يفرضها عليه النظام الغاشم الذي يُطبقه أولئك الإقطاعيون (2.1)

الجمهور: *- &&&&- *

السادات: قلنا لهم

ففي المقتطف السابق كانت هناك لحظة صمت تتجاوز الثانيتين، وبعد ذلك بدأ تصفيق متردد غير شديد لم يستمر سوى أربع ثواني ونصف. وهي فترة تقترب من نصف متوسط وقت التصفيق في الخطب السياسية، وهو ثماني ثواني. ويبدو أن تقنية الصمت بوصفها أداة لاستجلاب التصفيق تبدو غير فاعلة

بشكل كبير؛ فقد رأينا أن المكان الأمثل للتصفيق هو قبل إكمال الخطيب لكلامه بنحو ثانية أو ثانيتين. كما رأينا كيف أن تأخير التصفيق بعد انتهاء الخطيب من كلامه قد يكون مؤشرًا على التردد في التصفيق وهو ما يقلل من الدلالة الاستحسانية للتصفيق.

5. تكرار مفردات تحظى بقبول وتقدير خاص من الجمهور

وهي تقنية شائعة وناجحة في الخطابة السياسية. وقد يرجع نجاحها إلى انفعال الجمهور بكلمات بعينها في سياقات بعينها قد تكون مرتبطة بتلبية حاجات مادية أو سيكولوجية. كما قد يرجع إلى التقدير المطلق لبعض المفردات التي ينظر إليها الجمهور بوصفها مكونا أساسيا من مكونات هويتهم أو وجودهم.

6. السخرية من طرف ثالث بخلاف المتكلم والجمهور

البلاغة العربية هي – في أحد وجوهها – بلاغة منافرة ومواجهة وذم وهجاء. وقد كانت الكلمة على مدار تاريخ العرب أداةً لإراقة دم الآخرين، وإنسانيتهم. وعلى الرغم من طابع القسوة الذي تولده مثل هذه البلاغة فإنها من زاوية أخرى كانت ذا نفع عظيم؛ ففي كثير من الأحيان اكتفى العرب القدماء بالتراشق بالكلمات بدلاً من التراشق بالرماح والنبال. وهكذا حل الاقتتال بالكلمات كثيرا محل الاقتتال بالسيوف. ولا زال المشهد البلاغي العربي – خاصة السياسي منه – حافلا بتجليات لا حصر لها على حرب الكلمات، التي تُعد السخرية أحد أكثر أسلحتها مضاءً وفتكًا[18].

على الرغم من أن السخرية في المقتطف السابق لاذعة وتقرب من أن تكون جارحة، إلا أنها غير مباشرة. فبواسطة السؤال البلاغي يقوم المتكلم بإنجاز فعل السخرية بشكل غير مباشر. وإذا كان السؤال البلاغي الساخر في المقتطف السابق غرضه التعريض فإن المقتطف الآتي يتضمن سؤالا بلاغيًا ساخرا غرضه الاستنكار:

خطبة عبد الناصر في جامعة القاهرة في ذكرى الوحدة في 1966

عبد الناصر: بيقول الملك فيصل: إن الغرض هو مقاومة الإلحاد، هل حنقاوم الإلحاد بالسياسة واللا نقاوم الإلحاد بالدين؟ دا حلف سياسى ومش

[18] – أشار عبد السلام المسدي إلى بعض أمثلة السخرية والإغاظة والملاسنة في الخطاب السياسي العربي والعالمي. انظر، المسدي، عبد السلام. (2007). "السياسة وسلطة اللغة"، الدار المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة، ص 339–355.

حلف أو تكتل دينى، إذا كان تكتل دينى كان يكون من رجال الدين.
.. بقى شاه إيران وبورقيبه هم اللى حيقاموا الإلحاد فى العالم العربى والعالم الإسلامى؟! اشمعنى؟!

الجمهور &&&&&&&

الجمهور | هتاف متقطع

تنبع سخرية السؤالين المتواليين في المقتطف السابق من عناصر سياقية يعرفها الجمهور. فلم يكن الرئيس بورقيبة أو الملك الشاه ممن يُعرفون –على المستوى الشخصي– بالتدين أو الالتزام الديني. هذه المعرفة المشتركة بين الخطيب والجمهور هي التي فتحت الباب أمام التساؤل الإنكاري المكون من كلمة واحدة هي: إشمعنى. وهي علامة استفهام شائعة الاستخدام في العامية المصرية، تُستخدم بكثافة بين الطبقات المتوسطة والدنيا من المجتمع. كما أنها مركز نشاط لغوي حواري فكاهي يدور بين شخصين، أحدهما يذكر اسم شخص أو مكان والثاني يسأل إشمعنى، فيذكر الأول معلومات فكاهية عن هذا الشخص أو المكان.

في المقتطف التالي نحن أيضًا بإزاء سخرية غير مباشرة، وهي أيضًا تتعلق برئيس عربي. يقول عبد الناصر في خطبته في ذكرى الوحدة في 1966، متحدثًا عن نوري السعيد الرئيس العراقي السابق وعن حلف بغداد:

خطبة عبد الناصر في جامعة القاهرة في ذكرى الوحدة في 1966

عبد الناصر: وبهذا كشف نورى السعيد فى أغسطس سنة ٥٤ عن الخطة كلها اللى مترتبة، وحدد الدول اللى حتشترك، وقبل ما يمشى ادانى نصيحة لله من أجل مستقبلى الشخصى إنى أنضم للحلف (ثانيتين صمت)

الجمهور:

&&&&&&&&

يختم عبد الناصر العبارة السابقة بقوله: "وقبل ما يمشى (نوري السعيد) إدانى نصيحة لله من أجل مستقبلى الشخصى إنى أنضم للحلف".

تنبع السخرية في عبارة عبد الناصر من المفارقة بين نصيحة نوري السعيد لعبد الناصر وما آل إليه كل منهما. فنوري السعيد ينصح عبد الناصر بأن ينضم لحلف بغداد كي يؤمن عبد الناصر مستقبله الشخصي؛ أي كي يستمر في حكم مصر. لكن ما حدث هو أن نوري السعيد نفسه هو الذي سقط، وأُجبر على ترك الحكم والتشريد. في حين استمر عبد الناصر في الحكم سنوات طويلة بعد ذلك مع أنه (أو ربما لأنه) لم يأخذ بنصيحة نوري. والجمهور يعرف كل ذلك. وقد صفق الجمهور لأنه يعرف أن النصيحة "مضروبة"؛ كما يقول التعبير الشعبي، وأن المنفعة تكمن في مخالفتها.

لم تقتصر السخرية في الخطاب السياسي على الأشخاص فحسب؛ فهناك حالات لا حصر لها من السخرية من مؤسسات أو أفعال أو قرارات أو أقوال سياسية. وفي المقتطف الآتي يسخر عبد الناصر من مشروع السعودية لتشكيل "حلف إسلامي" في منتصف الستينيات في إطار صراعها المتأجج مع مشروع القومية العربية؛ يقول:

خطبة عبد الناصر في جامعة القاهرة في ذكرى الوحدة في 1966

عبد الناصر: وبهذا أصبح الطريق مفتوحًا أمام الاستعمار القديم والاستعمار الجديد؛ علشان يحطوا البلاد العربية فى حلف جديد يتخذ من الدين اسماً ويتخذ من الدين ستاراً. حلف بغداد وجدوا له اسم عربى؛ سموه حلف بغداد، لبسوه عقال ولبسوه عباءة؛ علشان يخبوا بهم إنجلترا وأمريكا، الحلف الجديد لبسوه عمة: علشان

الجمهور: ضحك لمدة ثانيتين

الجمهور: &&&&&&&&

عبد الناصر: يسموه

الجمهور: هتاف ذكوري (لمدة 6 ثواني)

الجمهور: &&&&

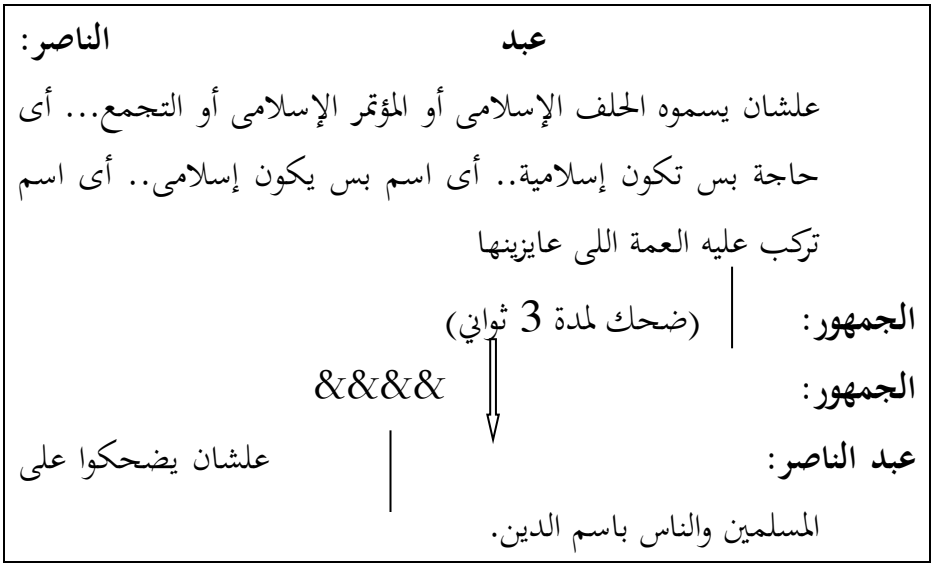

تتولد السخرية في المقتطف السابق من خلال الاستعارة التي أبدعها عبد الناصر للتعبير عن استغلال الدين في الصراع السياسي في العالم العربي في تلك الفترة. فقد شبه عبد الناصر الأحلاف التي تعزز من السيطرة الغربية على العالم العربي بالكائن الشرير الذي يتغير رداؤه ولا يتغير جوهره. يرتدي العباءة والعقال ويتسمى باسم حلف بغداد حينًا، ويرتدي الجلباب والعمة ويتسمى باسم الحلف الإسلامي أو المؤتمر الإسلامي أو التجمع الإسلامي أحيانًا أخرى لكنه يظل هو هو في كل الحالات. والجمهور يضحك إذ يتخيل الحلف وهو يخلع رداءه القديم ويلبس عباءة تسهل عملية إعطائه اسمًا "إسلاميًا"، يتجانس معها. ويتم إضافة عمق للاستعارة من خلال تصوير الكائن وقد ألبسته السعودية عباءة، وأعطته اسما إسلاميا. والجمهور يضحك وهو يتخيل هذا الكائن وهم يحاولون إلباسه العباءة، ويختارون له اسما يتجانس مع العباءة.

7. الثنائيات المتقابلة

اعتبر أتكينسون الثنائيات المتقابلة contrastive pairs أحد فخين – بمعية القوائم ثلاثية الأجزاء– يشيع استخدامهما لاصطياد التصفيق من الجمهور في الخطب السياسية الإنجليزية. وقد توصل هيرتج وجريتباث (1986) إلى أن الثنائيات المتقابلة كانت مسئولة عن نسبة 33.2% من مجموع التصفيق الجماعي الذي وقع في 476 خطبة سياسية بريطانية قاما بدراستها[19]. وهو ما يعني أن

[19] – انظر هيرتج وجريتباث (1986)، مرجع سابق، ص 122.

استخدام السياسيين للثنائيات المتقابلة سببٌ في ثلث التصفيق الذي يحصدونه من الجماهير. أو بصياغة أخرى، أن ثلث التصفيق الذي يقوم به الجمهور سببه استخدام المتكلم للثنائيات المتقابلة.

يقصد أتكينسون بالثنائيات المتقابلة صُنع تقابل (أو تضاد أو تعارض) بين شيئين. وقد قدَّم لها المثال الآتي:

خطوة صغيرة لرجل

قفزة عملاقة للبشرية

هذه العبارة قالها نيل أرمسترونج رائد الفضاء الروسي إثر هبوطه على سطح القمر، وقيامه بأول خطوة بشرية على سطح هذا الجرم السماوي. والعبارة تصف الحدث الذي كان نقطة تحول في تاريخ البشرية، وعلامة على نشوء عصر جديد أطلق عليه البعض "عصر الفضاء". العبارة تتكون من جزأين؛ كل جزء يتكون من مفردة نكرة ومفردة تصفها وجار ومجرور يتعلق بها. كل مفردة في الجزء الأول تُقيم تقابلا مع كلمة أخرى في الجزء الثاني؛ فالخطوة تقابل القفزة، والصغر يقابل العملقة، والرجل يقابل البشرية. كما يوجد بين جزأي العبارة تقابل عام بين خطو أرمسترونج على القمر والتطور الهائل الذي تعنيه للبشرية.

يرى أتكينسون أن هذا الفخ يرتبط بطبيعة الخطابة السياسية التي تقوم على ثنائية "نحن" و"هم"[20]. ويبدو هذا الرأي دقيقًا؛ لأن الخطابة السياسية بطبيعتها أميل إلى دفع رأي برأي أو حجة بحجة أو موقف بموقف. وفي سياق تحقيق ذلك يتم قياس الموقف الذي يمثله الخطيب بالموقف الذي يمثله خصومه أو ببساطة "الآخرون". كما أن السياسة –كما تُمارس في معظم المجتمعات المعاصرة– هي ميدان للتنافس والصراع. فهناك دوما صراع بين الأحزاب السياسية المختلفة والجماعات السياسية المتباينة والإيديولوجيات السياسية المتمايزة. هذا الصراع يتجلى –في كثير من الأحيان– في حرص كل فريق سياسي على تحسين صورته وتشويه صور الفرق الأخرى.

وقد رأينا في العينة التي درسناها من الخطب السياسية أن هذا الفخ شائع الاستخدام في خطب الرؤساء المصريين بعد الثورة. ويمكن تبرير ذلك بأن البلاغة العربية – كما سبقت الإشارة– أقرب إلى أن تكون "بلاغة مواجهة"، أو "بلاغة منافرة". وقد كان الشعر العربي القديم يقوم على ثنائية المدح والهجاء، بمثل ما كانت معظم الخطب السياسية العربية القديمة تصب في مجرى "تقريظ النحن"، و"تحقير الآخرين".

[20] – انظر، أتكينسون (1984)، مرجع سابق، ص 73.

تقوم الثنائيات المتقابلة بتسليط الضوء على التمايز بين كل طرف من الثنائية. وإذا كانت "الأشياء بضدها تتميز" فإن اللجوء إلى الثنائية يحقق وظيفة تسليط الضوء على التقابل بين ما يمثله الخطيب أو يؤازره أو يدعو إليه وما يمثله الآخرون أو يؤازرونه أو يدعون إليه. على نحو ما يظهر في المقتطف الآتي:

خطبة عبد الناصر في جامعة القاهرة في ذكرى الوحدة في 1966

عبد الناصر: دورياً يجتمع فى الحج كل قادة الدول الإسلامية، يجتمعون خاشعين؛ ولكن أقوياء، متجردين من المطامع؛ لكن عاملين، مستضعفين لله؛ لكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم

الجمهور: &&&&&&&&&&

تتضمن عبارة عبد الناصر ثلاث ثنائيات تقابلية هي:

الثنائية الأولى: خاشعين لكن أقوياء

الثنائية الثانية: متجردين من المطامع لكن عاملين

الثنائية الثالثة: مستضعفين لله لكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم.

هذه الثنائيات الثلاث تبرز كيف أن الجمع بين صفات تبدو متناقضة في إطار شخصية واحدة قد يكون علامة قوة لا علامة ضعف. فالمرء لا يضيره أن يكون مستضعفًا إذا كان استضعافه لله وحده، ولا يضيره في الوقت ذاته أن يكون شديدًا، إذا كانت شدته على أعدائه ومشكلاته فقط. هذا الأسلوب من التوفيق بين الثنائيات المتقابلة في إطار الشخصية البشرية يشيع على نحو خاص في النصوص الدينية التي تميز بين حقل التعامل مع الله وحقل التعامل مع الناس. وربما يجدر بالذكر أن عبارة عبد الناصر ذاتها تتناص مع آيات قرآنية وأحاديث نبوية متعددة تدور حول نفس المعنى.

ليس التصفيق هو الاستجابة الوحيدة التي يستطيع المتكلم اصطيادها بواسطة الثنائيات المتقابلة؛ ففي كثير من الخطب السياسية يقوم الجمهور بدمج التصفيق والهتاف بعد الجمل أو العبارات التي تتضمن ثنائية تقابلية، كما في المقتطف الآتي:

خطبة عبد الناصر في جامعة القاهرة في ذكرى الوحدة في 1966

عبد الناصر: طبعاً هم بدءوا بهذا الشعور من يوم الانفصال يوم ٢٨ سبتمبر، يوم الانفصال بين سوريا ومصر، ولكن بعد كده عززوا هذا الشعور واطمأنوا إلى أنهم من الممكن لهم إنهم يقضوا على كل القوى التقدمية فى العالم العربى، وأقنعوا نفسهم أن وحدة النضال العربى شىء انتهى وتفكك، ولكن وحدة النضال العربى شىء لم ينته وشىء

الجمهور: –*–

عبد الناصر: لن يتفكك

الجمهور: &&&&&&&

الجمهور: هتاف لمدة 17 ثانية الرجعية والاستعمار أعداء الوحدة والثوار)

الجمهور: &&&&&

في هذا المقتطف وردت الثنائية الآتية:

أقنعوا أنفسهم أن وحدة النضال العربى شيء انتهى وتفكك

ولكن وحدة النضال العربى شىء لم ينته وشيء لن يتفكك

تقوم الثنائية على تكرار عبارة "وحدة النضال العربي شيء انتهى وتفكك" مثبتة مرة ومنفية مرة أخرى. وتبدأ العبارة المنفية بأدة استدراك هي "لكن"، التي تُهيئ الجمهور لسماع شيء مقابل لما قيل. وبإعادة العبارة كما هي فإن الجمهور يستطيع التنبؤ بما سوف يقوله المتكلم. وربما يُفسر هذا أن أحد أفراد الجمهور بدأ التصفيق قبل أن ينتهي عبد الناصر من نطق الجزء الختامي من العبارة. لكن بقية الجمهور لم ينضم لهذه المحاولة الفردية إلا بعد أن انتهى عبد الناصر من نطق العبارة كاملة؛ أي بعد أن اكتملت الثنائية التقابلية.

الهتاف في المقتطف السابق هو هتاف منظم. فقد بدأ بترديد فرد للهتاف يتلوه المجموع. وعلى الرغم من أن التسجيل الذي أُتيح لي لهذه الخطبة هو تسجيل مسموع فإنه يمكن بسهولة التثبت من أنه يوجد

صوت هتّيف بعينه يقوم بقيادة بقية مجموعة الهاتفين. وأن هذا الصوت الذكري يتبادل مهمة قائد الهاتفين مع صوت أنثوي آخر، بشكل شبه منظم. كما أن مضمون الهتاف ينسجم بشكل كامل مع مضمون الثنائية التقابلية التي سبق أن أوردناها. فالهتيفة يقولون: الرجعية والاستعمار أعداء الوحدة والثوار. والثنائية تقرر أن الرجعية والاستعمار ظنا أنهما استطاعا هزيمة الوحدة والثوار، وهو ما لم يحدث.

ليس كل استخدام للثنائيات المتقابلة يؤدي إلى التصفيق. كما يظهر من المقتطف الآتي:

خطبة عبد الناصر في ذكرى ثورة يوليو 1966

عبد الناصر: إن الشعب المصرى وحده هو الآن يملك أن يختار قيادته؛ يملك أن يرفعها ويملك إسقاطها. إن الذين

الجمهور: ⇓ * _* _* _ *

يتضمن المقتطف السابق ثنائيتين هما:

(1) يملك أن يرفعها

(2) يملك إسقاطها

وذلك إضافة إلى كون الجملتين السابقتين تشكلان عنصرين من قائمة ثلاثية هي:

(1) يملك أن يختار قيادته

(2) يملك أن يرفعها

(3) يملك إسقاطها

على الرغم من أن العبارة تتضمن فخين هما؛ الثنائيات المتقابلة والقائمة ثلاثية الأجزاء، فإن الجمهور لم ينضم إلى الشخص الذي بدأ التصفيق؛ فظل تصفيقه فرديًا أحاديًا. والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا لم يستحسن الجمهور هذه العبارة على الرغم من أنها —من حيث المعنى– غاية ما تطمح إليه أمة، وغاية ما يتمناه شعب؟ لماذا تُرك هذا الفرد يُصفق وحيدًا خارج السرب؟

ليست هناك أجوبة قاطعة تفسر امتناع جمهور الحاضرين عن التصفيق لهذه العبارة التي جمعت محفزات التصفيق المستدعَى وغير المستدعَى في وقت واحد. فالعبارة – بصياغة أخرى– حظيت ببلاغة الشكل وبلاغة المعنى؛ ومع ذلك لم تحظ باستحسان الجمهور. وعلى الرغم من غياب الأجوبة القاطعة فإنه يمكن

تقديم بعض التخمينات التفسيرية، التي تستند إلى السياق السياسي وطبيعة نظام الحكم في مصر في تلك الفترة.

جاءت العبارة السابقة في إطار تفنيد عبد الناصر للرأي الذي يقول بأنه يوجد حكم ديكتاتوري في مصر، يمكن أن يسقط بواسطة معارضة مسلحة؛ لأن الشعب لا يؤيده. وقام بذلك التفنيد من خلال رد كل السلطة إلى الشعب، معلنًا أنه يستمد شرعية حكمه من الشعب. بما يوحي بالطابع الديمقراطي للحكم.

لقد أُلقيت هذه الخطبة في عام 1966 بعد أحد عشر عاما من وجود عبد الناصر في الحكم بدون انتخابات ديمقراطية؛ منذ حرض العمال على التظاهر في عام 1954 ضد عودة الحياة النيابية وانسحاب الجيش إلى قواعده. كانت المعتقلات في تلك الفترة مفتوحة على آخرها، لتسع أشكال المعارضة، والحركات والتنظيمات السياسية، السلمية وغير السلمية، السرية والمعلنة. كانت الدولة المصرية قد تحولت إلى دولة شبه بوليسية. وعلى الرغم من المكاسب الهائلة التي عادت على جموع الشعب من الثورة؛ خاصة فئتي العمال والفلاحين فإنه كان يوجد شعور أكيد بغياب الحرية السياسية. وفي ظل هذا الجو العام يخطب عبد الناصر، ويقول إن الشعب هو الذي يملك كل السلطات، وأنه موجود في الحكم برضا كامل من الشعب..إلخ. من المؤكد أن أفراد الجمهور الحاضرين كانوا يُدركون أن هذه العبارات أبعد ما تكون عن واقع الحال. وأن استحسانها تصفيقًا يُضيف إلى واقع القهر، مزيدًا من القهر. ومن هنا كان الامتناع عن المشاركة في التصفيق اختيارا لعدم المشاركة في مسرحية عنوانها "كل شيء بيد الشعب".

لكن هذا التفسير ليس هو التفسير الممكن الوحيد؛ فهناك تفسير آخر ربما لا يقل عنه وجاهة. لقد كانت العبارة السابقة مكتوبة للاستهلاك الخارجي لا المحلي؛ فهي موجهة لأعداء عبد الناصر خارج مصر —السعودية والغرب على وجه التحديد– ردًا على سعيها لتغيير نظام الحكم في مصر بواسطة تشجيع قوى داخلية على الانقلاب. وهو يرد على ذلك بأن هذا غير ممكن لأن السلطة يملكها الشعب. ولأن الشعب – ممثلا في جمهور الحاضرين– يُدرك أنه لا يملك السلطة كما يقول عبد الناصر؛ فإنه يختار ألا يصفق، حتى لا يفهم عبد الناصر وأتباعه من هذا التصفيق أن جمهور الحاضرين يؤيدون بالفعل أن تكون السلطة للشعب، أو أنهم من أنصار الديمقراطية التي يتحدث عنها عبد الناصر للاستهلاك الخارجي. وهو ما يُعد خروجًا على قواعد اللعبة السياسية التي تتلخص في: الجيش يحتفظ بالسلطة لنفسه، لكنه يقول إنه يستمد

سلطته من الشعب، وأن الشعب هو صاحب السلطة المطلقة، وأنه جاء إلى الحكم في إطار عملية ديمقراطية نزيهة. وجمهور الحاضرين يهزون رءوسهم بالإيجاب على الرغم من أنهم يُدركون أنهم لا سلطة لديهم، ولا للشعب الذي يمثلونه.

لقد حاولت في الصفحات السابقة الكشف عن الفخاخ المختلفة التي تُستخدم لاصطياد التصفيق في عينة من الخطب. وهي جميعًا ترتبط بظواهر خطابية بلاغية كانت أم أدائية. ويوجد بالإضافة إلى هذه الفخاخ أساليب يتم استخدمها في الخطاب السياسي لاستدعاء التصفيق. والفرق بين أساليب استدعاء التصفيق وفخاخ التصفيق أن الأولى ترتبط بالمعنى أكبر من ارتباطها بطرق التعبير عنه أو أدائه، في حين ترتبط فخاخ التصفيق بطرق التعبير عن المعنى وطرق أدائه بدرجة أكبر من ارتباطها بالمعنى ذاته. إضافة إلى ذلك أن أساليب استدعاء التصفيق تعمل بشكل شبه مباشر، في مقابل فخاخ التصفيق التي تعمل بشكل مراوغ. وقد عالج أتكينسون **الأساليب المختلفة لاستدعاء التصفيق** في سياق الخطابة السياسية البريطانية، ولخصها في الأساليب الآتية:

1. العبارات المباشِرة الحاثة على التصفيق

مثل عبارة: دعنا الآن نظهر تقديرنا بالطريقة المعتادة Let us now show our appreciation in the usual manner. هذه العبارة يقولها غالبًا الشخص الذي يُقدم السياسي للجمهور أو يقوم بإدارة الحفل أو الحدث الذي يتكلم فيه السياسي، وغالبا ما تُقال في بداية الكلام أو خاتمته.

مثل هذه الطريقة المباشرة في استدعاء التصفيق شائعة الاستخدام في الخطب السياسية الغربية؛ لكنها نادرًا ما تُستخدم في سياق الخطب الرئاسية أو الملكية العربية. إذ غالبا ما يُستخدم بدلا منها إشارة غير لفظية هي التصفيق ذاته. فغالبا ما يبدأ الشخص الذي يقدم السياسي أو الذي يدير الحدث بالتصفيق مادا يده للأمام وموجها وجهه نحو الجمهور فيما يشبه الحث غير المباشر على التصفيق، وقد يقترن ذلك بالإشارة لهم بالوقوف أثناء التصفيق. ومثل هذا الشخص يقوم في هذه الحالة بدور قائد التصفيق.

2. تقديم المتكلم للجمهور:

وعادة ما يتم نطق اسم المتحدث بنبرة متصاعدة، ويقع التصفيق قبيل انتهاء المتكلم من نطق الاسم.

3. تقريظ "الأنا"

التقريظ هو مدح النفس أو الآخرين من خلال ذكر خصالهم الإيجابية أو أفعالهم الحميدة. وتقريظ الذات أحد أبرز سمات الخطاب السياسي في معظم الثقافات. فبواسطة تقريظ الذات يحاول رجال السياسة دومًا تأكيد شرعية وصولهم إلى الحكم أو احتفاظهم به. لكن الخطاب السياسي في النصف قرن الماضي ربما يتضمن قدرًا أكبر من "تقريظ الذات" بأكثر مما تتضمنه خطابات سياسية أخرى. فالمتصفح لخطب عبد الناصر والسادات ومبارك يستوقفه هذا الإلحاح الدائم على تقريظ هؤلاء الرؤساء لأنفسهم داخل الخطب. حيث لا تكاد تترك فرصة لمدح الذات إلا واغتنمت.

4. وصم "الآخرين"

من أهم خصائص الخطاب السياسي عزله الكامل بين جماعتين؛ الأولى هي جماعة المتكلم التي يستخدم ضمائر (أنا)، و(نحن) للإشارة إليها. وتضم الأفراد أو الجماعات التي يرى المتكلم أنها تشاركه أفكاره أو مصالحه أو مواقفه، ويمكن أن نسميها جماعة "**النحن**". توضع جماعة "النحن" هذه بشكل دائم في مقابل جماعة أخرى تُقدم بوصفها الآخرين الذين يُشار إليهم بواسطة ضمير الغيبة "هم"، ويمكن أن نسميها جماعة "**الهم**". هذه الجماعة غالبا ما توصم بكل الصفات السلبية المضادة للصفات الإيجابية التي توسم بها جماعة النحن. تختلف الصفات التي تلصق بجماعة الهم من خطاب سياسي إلى آخر ومن ظرف سياسي إلى آخر. فالآخر في الخطاب الناصري في الستينيات هو قوى الرجعية والإمبريالية والصهيونية وعملاؤهم..إلخ. بينما الآخر في الخطاب الساداتي في أواخر السبعينيات يشير إلى الشيوعيين الملحدين أو الأفندية الانتهازيين أو الجماعات التي تتاجر بالإسلام أو المثقفين المأجورين..إلخ. وفي العادة فإن الجمهور يصفق بحرارة للعبارات التي تتضمن وصما للآخر في الخطاب السياسي.

5. الإعلان عن قرارات أو مواقف تحظى بقبول الجماهير ومساندتهم

وتعد هذه التقنية إحدى السبل المضمونة لتحقيق تصفيق عاصف. فالجماهير تستحسن ما يخدم مصالحها أو ما ينسجم مع توقعاتها وآمالها.

العوامل غير الخطابية المؤثرة إنتاج الاستجابة البلاغية

لا تتأثر الاستجابة البلاغية بعناصر تشكل الخطاب وأدائه فحسب، بل تتعرض لتأثير كبير من عوامل غير خطابية، ربما يكون تأثيرها أقوى من تأثير الظواهر الخطابية ذاتها. ويجدر بالباحثين في العلاقة بين الظواهر البلاغية واستجابات المتلقين أن يتفطنوا لهذه العوامل حتى يستطيعوا الإحاطة بدقة بأشكال هذه العلاقة المعقدة. وفيما يتعلق باستجابة التصفيق أثناء تلقي الخطب الرئاسية فبالإضافة إلى العوامل الخطابية التي تخص لغة الخطبة وبلاغتها وطرق أدائها والمعاني أو المواقف التي تكشف عنها هناك عوامل غير خطابية تسهم في إنتاج التصفيق من أهمها:

1. تفاوت السلطة

يشيع في المجتمعات العربية التمييز بين من يملكون السلطة ومن لا يملكونها. وقد وضعت الدراسات الاجتماعية معيارا لقياس التفاوت بين من يملكون السلطة ومن لا يملكونها في المجتمعات البشرية المعاصرة؛ هو معيار تفاوت السلطة power distance. وتنقسم المجتمعات وفق هذا المعيار بحسب عدالة توزيع السلطة والثروة والمكانة بين أفرادها. فأعضاء المجتمعات التي لا تتوزع فيها السلطة والثروة والمكانة توزيعا عادلا ينظرون إلى السلطة بوصفها حقيقة أساسية في المجتمع. في حين يرى أفراد المجتمعات التي توزِّع السلطة توزيعا عادلا أن السلطة يجب أن تكون مشروعة وأن تُستخدم بشكل مشروع. وللأسف فإن تفاوت السلطة يبدو كبيرًا للغاية في الدول العربية مقارنة بدول الغرب؛ خاصة الغرب الأوروبي. فبينما تبلغ نسبة التفاوت 80% في دول مثل مصر والعراق والسعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة ولبنان وليبيا، تبلغ أقل من 40% في دول مثل ألمانيا وبريطانيا والنرويج والسويد وفنلندا، وأقل من 20% في دول مثل أستراليا والدنمارك[21].

يؤثر تفاوت السلطة في التواصل غير اللفظي بين أفراد الثقافة الواحدة. ففي المجتمعات التي يتعمق فيها تفاوت السلطة يكون الأفراد الذين يفتقدون السلطة حذرين في استخدامهم للإشارات غير اللفظية خشية

---

[21] – اعتمدتُ على مقياس هوفستد Hofstede لتفاوت السلطة. انظر الجدول المنشور في: http://www.clearlycultural.com/geert- hofstede- cultural-dimensions/power- distance- index/، تاريخ الدخول 2008/8/18، الثانية ظهرا بتوقيت جرينتش.

إساءة تأويلها من قبل الأفراد الممتلكين للسلطة، وعليهم فحسب إنتاج علامات محددة تعكس خضوعهم لمن يمتلكون السلطة، واستحسانهم لكل ما يقولون. إضافة إلى أن بعض الأفراد في الثقافات عالية التفاوت ينتظرون أن يُنتِج محاوروهم سلوكيات غير لفظية، تنم عن التبجيل والتعظيم والإكبار؛ مثل عدم النظر في العين مباشرة، وعدم وضع قدم فوق أخرى أثناء الجلوس، وعدم وضع اليد في الجيب أو الارتكان إلى شيء أثناء الوقوف..إلخ. وقد يشعر بعض حائزي السلطة في العالم العربي بالضيق إذا تعامل معهم محاوروهم بنفس الطريقة التي يتعاملون بها مع غيرهم ممن هم أقل سلطة.

ينعكس واقع تفاوت السلطة في المجتمع على إنتاج الاستجابات الآنية في سياقات التواصل الجماهيري. فالأشخاص الذين يحظون بسلطة أكبر يحظون بقدر أكبر من الاستجابات الاستحسانية بغض النظر عن طبيعة ما يقولون أو طريقة أدائهم له. ففي السياق الأكاديمي على سبيل المثال من المحتمل أن يحظى الأستاذ بتصفيق أطول مدى وشدة مما يحظى به الطالب، وفي السياق السياسي من الطبيعي أن يحظى رئيس الدولة بتصفيق أطول مدى وشدة من الوزير إذا كانا يتكلمان في مناسبة واحدة، وفي المقابل فإن الوزير سوف يحظى بتصفيق أطول مدى وشدة مما سيحصل عليه معاونه إذا كانا يتكلمان في مناسبة واحد وهلم جرا. ومن ثم فإن السلطة التي يحوزها المتكلم عامل يؤثر في طبيعة التصفيق الذي يمكن أن يستحوذ عليه، وفي مداه وشدته.

2. طبيعة العلاقة بين المتكلم والجمهور

التصفيق في الخطابات الجماهيرية ليس نتاجًا مباشرًا للحدث الخطابي، بل يتأثر بتاريخ العلاقة بين المتحدث والجمهور. فالشخص الذي يحظى بتأييد أو دعم الجمهور قبل الحدث الخطابي يُحتمل أن يحظى بتصفيق أشد وأطول مدى من الشخص الذي لا يحظى بمثل هذا التأييد أو الدعم بغض النظر عن كفاءته التواصلية. لقد كانت الخطب السياسية في مصر خلال العقود الخمسة الماضية تُلقى أمام جمهور مُختار بعناية ليقوم بدور المؤيد والمستحسن لكل ما يقوله المتكلم. إضافة إلى ذلك فإنه لم يكن من المألوف وجود أكثر من خطيب يمثلون توجهات سياسية متعارضة في مناسبة واحدة. وذلك على خلاف المجتمعات الديمقراطية التي تعرف أشكالا من المناظرة بين ممثلي توجهات سياسية متنافسة، غالبا ما تتضمن خطبا قصيرة لهؤلاء السياسيين، خاصة في مفتتحها وخاتمتها. نتيجة لذلك فإن تفاوت درجة التصفيق وشدته انطلاقا من مدى التأييد المسبق الذي يحظى به الخطيب لا يتجلى في مصر بمثل ما يتجلى في المجتمعات الديمقراطية. ومع ذلك فإنه يمكن القول إن مدى التأييد المسبق للمواقف والآراء

والتوجهات التي يمثلها الخطيب ذو أثر كبير في تحديد مدى التصفيق وشدته. بالطبع يختلف هذا التأييد من موقف إلى آخر لكن المبدأ العام سوف يظل عاملا.

3. أثر استجابة الجمهور المشارك على استجابة الجمهور غير المشارك

منذ عقود طويلة أصبح العالم يعيش مرحلة التواصل الحي المتجاوز للزمان والمكان. فالخطبة التي يُلقيها سياسي ما في بقعة ما من بقاع الأرض يمكن أن يتلقاها أي فرد آخر في أية بقعة أخرى إذا وجدت الخطبة سبيلها إلى أي وسيط إعلامي مسموعًا كان أم مرئيًا. وهكذا لم تعد الخطابة السياسية سجينة الساحات الشعبية أو القاعات البرلمانية بل زحفت إلى حجرات نوم ومعيشة أبسط البشر الذين يملكون شاشة تلفزيون أو راديو. وترتب على ذلك تعدد أنواع جمهور الخطبة السياسية؛ حيث يمكن تقسيمه إلى جمهور مستهدف بالخطبة يسعى المتكلم للتأثير فيه، وجمهور آخر غير مستهدف بها، ولا يهتم به المتكلم من قريب أو بعيد لكنه يتلقى الخطبة لسبب أو آخر، مثل الطالب الأجنبي الذي يدرس اللغة العربية فيُنصت إلى خطبة لسياسي عربي لغرض تحسين مهارة استماعه للغة الفصحى مثلا. لكن التقسيم الأهم هو تقسيم أنواع الجمهور من حيث طبيعة تلقيهم للخطبة، وإمكانية الدمج بين استجابتهم وخطاب المتكلم؛ حيث ينقسمون إلى:

1. **الجمهور المشارك**: هو الذي يتلقى الخطبة السياسية بشكل مباشر دون وسيط إعلامي؛ ويستطيع أن ينقل استجابته للخطيب بشكل مباشر دون وسيط إعلامي أيضًا. وهو يتكون من الأشخاص الحاضرين في نفس مكان إلقاء الخطبة، ممن يستطيعون رؤية الخطيب وسماعه ويستطيع الخطيب رؤيتهم وسماعهم بشكل مباشر. وهو جمهور مشارك لأن وجوده مكمِّل للحدث الخطابي؛ فهو يشارك في إنتاج الحدث؛ لأن الاستجابة التي يقوم هذا الجمهور بإنتاجها تُعد جزءًا من خطاب المتكلم ذاته.

2. **الجمهور غير المشارك**: وهو الذي يتلقى الخطبة عبر وسيط قد يكون سمعيًا كالإذاعة أو مرئيًا كشاشات العرض العملاقة أو الإنترنت أو التليفزيون. وهؤلاء لا يستطيعون في كثير من الحالات نقل استجابتهم بشكل مباشر للخطيب. ومن ثم فإن هذه الاستجابات لا تُدمج في خطاب المتكلم. هذا الجمهور غالبًا ما يكون الأكثر عددا وأهمية بالنسبة للمتكلم. وعلى الرغم

من أن استجابته لا تصل إلى المتكلم بشكل مباشر فإن هذه الاستجابة قد تكون الغاية النهائية للخطاب نفسه.

هذا التقسيم يطرح سؤالا مهما فيما يتعلق بظاهرة التصفيق هو: ما مدى تأثير تصفيق الجمهور المشارك نحو الخطبة على توجهات الجمهور غير المشارك نحوها؟ هل يؤدي التصفيق الحار للجمهور الذي يستمع إلى خطبة سياسية ما بشكل مباشر إلى تعزيز إمكانيات قبولها لدى الجمهور الذي يتلقاها بواسطة الإذاعة أو التليفزيون مثلا؟ هذا السؤال مثل سابقه لا يمكن الإجابة عنه بشكل نظري فحسب. فهو يحتاج إلى بحوث تجريبية وميدانية تقيس مدى تأثر الجمهور الذي يستمع إلى الخطبة أو يشاهدها بواسطة الإذاعة أو التليفزيون باستجابة الجمهور الذي يستمع إلى الخطبة بشكل مباشر من المتكلم. ومع ذلك يمكن –بشكل مبدئي– الإجابة بنعم على هذا السؤال. تستند هذه الإجابة إلى أمور هي: **أولا**: أن الجمهور غير المشارك لا يتلقى كلام المتكلم بمعزل عن تصفيق المستمعين، بل هو يتلقى كليهما بوصفه خطابا واحدًا. **ثانيًا**: أن الجمهور غير المشارك غالبًا ما يتلقى الخطبة بشكل فردي؛ وهم بوصفهم أفرادًا أكثر استعدادًا للتأثر باتجاهات الجمهور المشارك الذي يظهر في شكل استجابة جماعية. ووفقا لنظرية دوامة الصمت Spiral of Silence فإن الأفراد يسعون بشكل دائم لتقريب مواقفهم واتجاهاتهم من مواقف واتجاهات الجمهور. فخوف الفرد من العزلة، وحرصه على أن يكون رأيه ومواقفه متسقة ومنسجمة مع الجماعة تدفعه إلى مشاركتها في سلوكياتها، حتى لو كانت تخالف ما يراه صائبًا أو حقيقيًا[22]. وهو ما يعني أن كثيرا من الأفراد سوف يقومون بالتصفيق إذا أدركوا أن الأغلبية تفعل ذلك، حتى لو كانوا غير مقتنعين بمبرراته. **ثالثًا**: التصفيق قد يكون معديًا مثل كثير من الأفعال الاجتماعية الجماعية. وفي هذه الحالة فإن تصفيق الجمهور المشارك يُحفز الجمهور غير المشارك على التصفيق. فكثير من الأشخاص يصفقون لأن "غيرهم يفعل ذلك".

إذا صحت الإجابة السابقة – وأظنها صحيحة– فإنه ينتج عن ذلك أن المتكلم الذي يستطيع السيطرة على استجابات الجمهور المشارك يستطيع أيضًا التأثير بقوة على استجابات الجمهور غير المشارك. وربما تبرر لنا تلك النتيجة ذلك الحرص غير العادي من أنظمة الحكم الديكتاتورية على السيطرة على استجابات

---

[22] - انظر:

Noelle- Neumann, E. (1993). The Spiral of Silence: Public Opinion - Our Social Skin. University of Chicago Press

الجمهور المشارك. كما تبرر لنا انتشار ظاهرة التصفيق المعد سلفًا أو التصفيق المأجور أو القهري. لكن الإجابة السابقة تطرح سؤالا آخر هو: هل معرفة الجمهور غير المشارك بأن استجابات الجمهور المشارك للخطيب غير عفوية أو صادقة يمكن أن يؤدي إلى التقليل من احتمال تأثير هذه الاستجابات؟ والإجابة مرة أخرى هي بالإيجاب؛ لأن المصداقية شرط التأثير، وغياب المصداقية قد يؤدي إلى إضعاف التأثير.

لقد تناولت على مدار صفحات هذا البحث بعض أوجه العلاقة بين الظواهر البلاغية واستجابات المتلقين. وأوضحت كيف تعمل ظواهر بعينها بوصفها فخاخًا بلاغية لاستجابات الجماهير، وكيف تتعاضد هذه الظواهر، مع عناصر خطابية وغير خطابية لإنجاز الوظيفة الكلية للخطاب. وآمل أن يكون هذا البحث خطوة في طريق إعادة فحص العلاقة بين طرق تشكل الخطاب وأدائه من ناحية واستجابات المتلقين له من ناحية أخرى. وهو ما قد يمثل إسهامًا في فهم أدق للعلاقة بين الظواهر البلاغية وما تُنجزه في الواقع.

الرسوم التوضيحية:

* السهم ذو الرأس السفلية (⇓) يُستخدم لتحديد مكان بدء التصفيق داخل النص.

*الخط المستقيم الرأسي (|) يُستخدم لتحديد الموضع الذي قطع فيه المتكلم تصفيق الجمهور، واستأنف كلامه.

*علامة الإضافة (&&&): تستخدم لتشير إلى التصفيق المتواصل مرتفع الصوت، ويشير عدد هذه العلامة إلى زمن التصفيق بالثواني؛ فالعلامات الثلاث السابقة تدل على أن التصفيق قد استمر لمدة ثلاث ثواني، أما العلامات الثماني &&&&&&&& -على سبيل المثال- فتدل على أن التصفيق قد استمر لمدة ثماني ثوان.

مصادر البحث ومراجعه:

الزمخشري، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. مكتبة مصر، القاهرة.

عبد اللطيف، عماد. (2009). لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن. دار العين، القاهرة.

القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة. دار إحياء العلوم، بيروت، ط2 1993.

المسدي، عبد السلام. (2007). "السياسة وسلطة اللغة"، الدار المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة.

Atkinson, M. (1984). *Our Masters' Voices: The Language and Body Language of Politics*. London: Methuen ،

Becker, J. (1991). A Brief Note on Turtles, Claptrap, and Ethnomusicology. *Ethnomusicology*, Vol. 35, No. 3 (Autumn, 1991), pp. 393- 396.

Bull, P. (2000). Do Audiences Applaud only "claptrap" in Political Speeches? An Analysis of Invited and Uninvited Applause. *Social Psychological Review*, 2, 32- 41.

Bull, P. (2003). The Microanalysis of Political Communication: Claptrap and Ambiguity. London: Routledge.

Bull, P. (2006). Invited and Uninvited Applause in Political Speeches. *British Journal of Social Psychology*, 45, 563- 578.

Heritage, J., & Greatbatch, D. (1986). Generating Applause: A Study of Rhetoric and Response at Party Political Conferences. *American Journal of Sociology*, 92, 110-157.

Kuo, S,. (2001)."Generating Applause and Laughter: A Study of Rhetoric and Response in the 1998 Taipei Mayoral Debates." *Studies in English Literature and Linguistics* 27 (2), 189- 215 .

Noelle- Neumann, E. (1993). *The Spiral of Silence: Public Opinion - Our Social Skin*. University of Chicago Press.